عوائق الاستطلاع والتساؤل في البحث الاجتماعي.

ا: عياد أحمد.
. جامعة تلمسان.

المقدمة:

يقول "غاستون باشلار": (العلم لا يخرج من الجهل كما يخرج النور من الظلام، لأن الجهل ليس له بنية، بل يخرج من التصحيحات المستمرة للبناء المعرفي السابق، حتى أن بنية العلم هي إدراك أخطائه، والحقيقة العلمية هي تصحيح تاريخي لخطأ طويل، والاختبار هو تصحيح الوهم الأولي المشترك.)1

و في العلوم الاجتماعية بات الفكر الاجتماعي أو الفلسفة الاجتماعية أمر لا طائل منه، بل لا بد من الوصول بالدراسات السوسيولوجية إلى مرحلة العلمية والوضعية، على أن يكون من أهم أسس وشروط العلمية الاعتماد كلية على منهج علمي ذي خطوات دقيقة في دراسة الظاهرة الاجتماعية.

و لعلنا لما نتحدث عن المنهج العلمي فإننا بالضرورة نعني مجموعة من الإجراءات والتقنيات المحددة والمرتبة، وفي طليعة هاته الخطوات نجد بناء الواقعة العلمية ثم الافتراض في حقها ثم الدراسة الأمبريقية وأخيرا الاستخلاصات والتعميمات.

وإذا كانت علوم الطبيعة تبعا لمدارس إبستيمولوجية كثيرة قد حققت تقدما هائلا إلى درجة العملقة، فإن ذلك راجع إلى قيامها بما يسمى بيولوجيا بعملية التعديل الذاتي وقراءة ماضيها وتاريخها كما يرى "غاستون باشلار" بلغة الأخطاء والعوائق، ومن أهم ما شملته عملية التعديل الذاتي هو ما يتعلق بالمنهج العلمي، حتى أضحى التحكم والدقة في تطبيق المنهج العلمي على الظاهرة الطبيعية هو أساس تقدمها وتعملقها، وعلى النقيض من ذلك لا زالت قضية المنهج في العلوم الاجتماعية تصنع جدلا كبيرا، سواء فيما يتعلق بالمداخل المنهجية أو تعدد المناهج أو البدائل التجريبية أو بناء الواقعة العلمية في البحث الاجتماعي.

وهذا الجدل واقع على مستويات عدة منها ما يتعلق بالواقعة العلمية في البحث الاجتماعي، إذ عملية بناء الوقائع العلمية هي عصب البحث العلمي وأساسه، بيد أنه في البحث الاجتماعي نجد

الكثير من العوائق التي تعترض عملية الاستطلاع وكذا عملية صياغة إشكالية البحث، وهاتين العمليتين هما عمود بناء الواقعة العلمية في البحث الاجتماعي.

الإشكالية:

عملية اعتماد المنهج العلمي في الظاهرة الطبيعية ليس محل نقاش وجدل، لكن الأخذ بالمنهج العلمي في الظاهرة الاجتماعية كان ولا يزال يطرح الكثير من العوائق الابستيمولوجية، وهذا راجع أصلا إلى ما تتميز به الظاهرة الاجتماعية من خصائص.

ولما كان البحث العلمي يبدأ بالسؤال العلمي ويظل في جميع خطواته يجيب عنه، ولما كان كذلك السؤال العلمي لا يتولد من خيال أو من إحساس، وإنما من واقع نستطلعه ونستقرئه، كان للسؤال العلمي وعملية الاستطلاع أهمية كبيرة في البحث العلمي، أهمية تكاد تكون هي المسؤولة عن دقة البحث وخصوبته.

وعن إثر المعانقة بين أهمية الاستطلاع والسؤال العلمي من جهة، وتعقيد الظاهرة الاجتماعية من جهة ثانية، يتسنى لنا أن نتساءل: إلى أي درجة يمكن بناء الأسئلة العلمية والقيام بعملية الاستطلاع في البحث الاجتماعي؟ وبصورة أخرى: ما هي عوائق الاستطلاع والتساؤل في البحث الاجتماعي؟

الأطروحة:

هشاشة البحث الاجتماعي مرتبطة بهشاشة التساؤل والاستطلاع فيه، كما أن متانة البحث الاجتماعي وخصوبته مرتبطة بمتانة وسلامة التساؤل والاستطلاع فيه، أي أن الباحث الاجتماعي الذي يجد القدرة على بناء الأسئلة العلمية والقيام بعملية الاستطلاع، هو فقط الذي يمكن له أن يصل في بحثه الاجتماعي إلى نتائج دقيقة يمكن تعميمها، وعلى العكس من ذلك فكل ما يلحق بالبحث الاجتماعي من سقطات وزلات لا علمية، إنما يعود إلى ما يعيق عملية التساؤل والاستطلاع فيه.

شروط المنهج العلمي وأهميته:

قد تتشيع وتتعدد تعريفات المنهج العلمي انطلاقا من كتب المنهجية، لكن كلها في الأخير تتمذهب بما ذهب إليه "برنالد فيليبس" على أنه الوسيلة التي عن طريق استخدامها يمكن فهمنا

للظواهر من كل الجوانب،2 ولعل هذا يتجاور مع ما ذهب إليه "عبد الرحمن بدوي" عندما يعرف المنهج العلمي على أنه (الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم المختلفة، وعن طريق مجموعة من القواعد العامة التي تسيطر على سير العقل وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.)3

هذا وقد لا نحتاج إلى إطناب في الحديث عن أهمية المنهج العلمي، فهو يؤطر البحث العلمي، بحيث يرسم الإطار أو الفلك الذي يكون بداخله البحث فلا يخرج عما سواه إلى ما هو ميتافيزيقي أو ذاتي، كما تكمن أهميته كذلك في أنه يمكن من فهم الظاهرة على شكل محدد ودقيق، بحيث أنه في غياب المنهج العلمي يكون فهم الظاهرة متعددا يفقد دقته.

وحتى يؤدي المنهج العلمي في البحث العلمي لهذه الغايات والفوائد، كان لزاما أن يحتكم إلى مجموعة من الشروط هي:

– أن يكفل قدرا كبيرا من الموضوعية للبحث العلمي،4 ولا يترك ثغرات لمرور ذاتية الباحث وأديولوجيته.

– أن يكفل قدرا كبيرا من الوضعية للبحث العلمي، بحيث يرسم سدا منيع أمام انتقال الباحث لمسائل ميتافيزيقة غيبية.

– أن يمكن من تفنيد وتجاوز الأفكار والأحكام المسبقة.

– أن يمكن من امتحان الحقائق والفرضيات بشكل تجربي أمبريقي.

أهمية الاستطلاع في البحث الاجتماعي:

الاستطلاع هو (عبارة عن عمل مصغر للدراسة العامة)5 كما يعتبر الاستطلاع خطوة أساسية في بناء الواقعة العلمية، وصياغة الإشكالية، إذ الباحث الاجتماعي بعد أن تكون واقعته غير ناضجة على شكل إحساس وشعور ووجدان، لايندفع بشكل مباشر إلى بناء سؤاله العلمي، وإنما له أن يتريث ويعمل على التأكد من هذا الإحساس والوجدان انطلاقا من الواقع.

فلا يكفي أن يشعر الباحث الاجتماعي بوجود ترابط بين متغير وآخر، بل لابد أن ينزل إلى الميدان ويتأكد وفق إحصائيات ودرجات وأرقام من هذا الترابط بين المتغير المستقل والمتغير التابع، وهذا وفق أدوات ميدانية يراها مناسبة، وهذا عينه ما يسمى بعملية الاستطلاع، أما عن أهمية الاستطلاع في البحث الاجتماعي فتكمن فيما يلي:

– يمكن من تحويل الظاهرة الاجتماعية من كونها حادث اجتماعي إلى واقعة علمية.

– يمكن من المرور من مرحلة الإحساس والوجدان إلى مرحلة التأكد من الظاهرة الاجتماعية كواقع علمي فعلي.

– يمكن من بناء الواقعة العلمية في البحث الاجتماعي.

– يمكن من تحديد مجتمع البحث والوحدة الإحصائية.

أهمية التساؤل في البحث الاجتماعي:

الإشكالية في البحث الاجتماعي ليست كما يعتقد الكثير أنها أي سؤال يطرح، بل هي عملية بناء، ولذا عادة نقول بناء الإشكالية العلمية،وليس طرح الإشكالية، وذلك لأن الإشكالية في البحث الاجتماعي هي ببساطة المقابلة بين العادي المألوف من جهة والإستثناء الغامض الموحش من جهة أخرى، مقابلة بين الدراسات السابقة من جهة ونتائج الاستطلاع من جهة أخرى.

والإشكالية العلمية هي محور البحث العلمي وأساسه، بحيث البحث العلمي فيما تبقى من خطواته إنما يعمل فقط على الاجابة عن هذه الإشكالية، أما عن كيفية صياغة الإشكالية العلمية فإنها فقط التساؤل عن العلاقة بين المتغير المستقل والمتغير التابع.

عوائق الاستطلاع والتساؤل في البحث الاجتماعي:

عوائق الاستطلاع والتساؤل في البحث الاجتماعي هي نفسها العوائق التي تعترض الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية، لكن حاولنا أن نركز على ما يلحق بعملية الاستطلاع وعملية بناء الإشكالية من عوائف، وذلك فقط لأن العوائق الأخرى المتعلقة بالبحث الاجتماعي إنما هي فقط انعكاس لما هو حاصل على مستوى الاستطلاع والتساؤل، والأولى لنا أن ندر الصورة وليس الطيف، أن ندرس النموذج وليس المثال.

ومن بين عوائق الاستطلاع والتساؤل في البحث الاجتماعي ما يلي:

– الذاتية وغياب الموضوعية، وقد يكون هذا راجعا أصلا إلى اتحاد الباحث والموضوع في البحث الاجتماعي، إذ (يمكن اختزال كل حيثيات وأسباب مشكلة العلوم الإنسانية في عاملين اساسيين

تنفرد بهما عن العلوم الطبيعية، فيرتد إليهما تخلفها النسبي عنها، طبيعة العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه، ونوعية الظاهرة الاجتماعية)6.

– اختلاط العلمي مع اللاعلمي أو على الأقل تجاورهما فيما يخص دراسة الظاهرة الاجتماعية، وهذا ما يجعل عملية الفصل بينهما عملية عصية، قدتسمح بتسرب المعتقدات العامية عن الظاهرة الاجتماعية إلى دراستها العلمية.

– روحانية الظاهرة الاجتماعية، بحث أنه لا يمكن الفصل بين الظاهرة الاجتماعية موضوع البحث والتصور الذي كونه الباحث عن المجتمع الذي تنتمي إليه الظاهرة، إذ (يمكننا أن نتساءل عن عالم مستقل لكننا لا يمكن أن نتحدث عنه على أنه مستقل عن تساؤلنا)7.

– تاريخية الظاهرة الاجتماعية، إذ أنها ليس نابت جديد، بل هي وليدة ترسبات تاريخية وماضية، ولا يمكن فهمها إلا من خلال ماضيها، ولما كان الماضي ميت غائب، فإنه من العسير تحري أكبر قدر من الموضوعية.

– دراسة الظاهرة الاجتماعية دائما من خلال نموذج معرفي جاهز، إذ قد تدرس من خلال إلحاقها بالظاهرة الفيزيائية أو الظاهر العضوية أو الظاهرة اللغوية أو غيرها، ينضاف إلى ذلك أن النموذج المعرفي عند الباحث الاجتماعي والذي يتخذ لدراسة الظاهرة الاجتماعية، غالبا ما يفرغ من بعده المعرفي ويحشى حشوا اديولوجيا، وعلى إثر ذلك كانت البحوث الاجتماعي (تتخبط في شعاب متفرقة وتختفي فيها شراك الإديولوجيات)8.

هذه العوائق وغيرها هو فعلا ما يعيق الدراسة السوسيولوجية، ويعيق أصلا فيها عملية الاستطلاع وعملية بناء الإشكالية العلمية.

الخاتمة:

يبيت واضحا أن البحث الاجتماعي من الناحية المنهجية يظل مختلفا عن البحث العلمي في علوم الطبيعة، وإنما يقع هذا الاختلاف والتمايز على مستوى إمكانية اعتماد المنهج العلمي بكل خطواته.

إذ في البحث الاجتماعي هناك الكثير من العوائق التي تعترض عملية اعتماد المنهج العلمي، وذلك راجع إلى خصوصية الظاهرة الاجتماعية، حتى أنه يظل في خلد البعض ضرورة إصابة الموضوعية في البحث الاجتماعي في اختراع خصائص الظاهرة الاجتماعية.

ولما نتحدث عن عقبات بناء الواقعة العلمية في البحث الاجتماعي، وعوائق الاستطلاع والتساؤل فيه، فبالضرورة نتحدث عن عوائق اعتماد المنهج العلمي في البحث الاجتماعي.

المراجع:

1- غاستون باشلار.الفكر العلمي الجديد. ترجمة: عادل العوا. منشورات وزارة الثقافة والسياحة، دمشق، 1969. ص: 92.

2- Phillips . s.p.Social research :Strategy and tactics. Macmillan publish.1979.P : 04

3- عبد الرحمان بدوي. مناهج البحث العلمي. دار النهضة العربية، بيروت، 1968. ص: 05

4- عبد الله محمد عبد الرحمن، محمد علي البدوي. مناهج وطرق البحث الاجتماعي. دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية. ص: .132

5- مصطفى عمر التير. مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي. ط2؛ منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، 1995. ص: .67

6- يمنى طريف الخولي. مشكلة العلوم الإنسانية. ط1؛ دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996. ص: 100.

7- Margolis.Recomciling the human and natural science. P:17

8- صلاح قنصوة. في فلسفة العلوم الاجتماعية. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1980. ص: 07